

النقد بين الحق والباطل

د/إ. عبد المجيد

أستاذ مساعد، قسم العربية، كلية مهاراجاس، إرناكلام، كيرلا

Email: dr.emajeed@gmail.com

حمدا لمن قال: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَبَابِ¹، ونهى الناس عن السمع من الذين يهيمنون في كل واد، وصلاة وسلاما على أفصح العرب، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فهذه محاولة متواضعة للإشارة إلى أهمية إحياء الموروث من الأدب والنقد، وإلى أهم وظائف النقد، ذلك: معاونة الأديب على الإنتاج الجيد، ومعاونة القارئ على التذوق، وهذه محاولة جادة أيضا لدفاع الأدب والنقد العربي عمّن يطوف حول منتجات أدبية أوروبية بسبب واحد أنها أوروبية، وعمّن يفتخر بتقليد الأوروبيين لفظا وغاية، وعمّن يحارب على الناظرين في التراث نظرة الباحث أو الدارس، لا نظرة المقلد والمقتبس، نشدا لهذا الهدف نمضي إلى الأمام ونناقش، وبالله التوفيق.

ونعلم أن معنى النقد في المصطلح الحديث: فهو تقويم النص الأدبي بالكشف عما فيه من جمال، وما وراء العبارات من أسرار وإيحاء، ومدى قدرتها على تصوير مشاعر الأديب، وعلى نقل هذه الصورة إلى فكر القارئ وشعوره. فلا بد أن يكون الناقد مزودا بالموهبة، والثقافة، والمنهج الموضوعي، وبعيدا عن الهوى والسطحية². وحقا، كثر عدد النقاد في العصر الحديث، وتباينت ثقافتهم، وزاد عدد المؤلفين في قواعد النقد وأصوله، وزبد عدد الدكاترة والأساتذة الذين ترجموا عن النقد الغربي كتباً ودراسات، كما تعددت مناهج النقد الأدبي في العصر الحديث، وأبرزها المنهج الشامل الذي

¹ سورة الزمر - الآية 18

² النقد الأدبي - للصف الثالث الثانوي، دولة الإمارات العربية المتحدة.

يتناول النص من جميع جوانبه، وإلقاء الضوء على كل زاوية من زواياه، والمؤثرات التي أثرت فيه¹. فأصبح الناقد لا يكتفي بدراسة الأعمال الأدبية لأديب، وفوق ذلك، يدرس حياة الأديب وبيئته وعصره، والعوامل المؤثرة في أديبه، واتجه النقاد على دراسة القضايا الاجتماعية التي يعالجها الأديب، وأصبحت النظرة النقدية إلى العمل الأدبي نظرة شاملة متكاملة، ونظر بمقياس الوحدة العضوية، ومدى تكاملها، وتوافرها في هذه القصيدة. وإلى جانب المعاني البارعة، وجمال اللفظ، وكثرة الصور الخيالية، طالب جمهور النقاد بأن يكون الصدق عنصراً أصيلاً في العمل الأدبي. وظهرت اتجاهات نقدية عديدة مثل الاتجاه التاريخي، والاتجاه النفسي، والاتجاه الموضوعي، والاتجاه الجمالي في تحليل النصوص وتعليقه².

ويمكن تقسيم هؤلاء النقاد إلى ثلاث طبقات³:

1. طبقة نهلت في ينابيع التراث وأعجبت به واتخذته مثلاً أعلى، واهتمت بالنص الأدبي من حيث المضمون واللغة فقط.
2. طبقة جمعت بين التراث والثقافة الغربية، فكانت على دراية بأساليب النقد العربي، وفتحت أفكارها لكل جديد مفيد.
3. طبقة غلبت عليها الثقافة الأجنبية، فهي لا تستحسن من الأدب إلا ما أثر عن الأجانب، تتخذ مقاييس الغرب نفسها معياراً في الحكم على الأدب العربي.

وجاء أصحاب الطبقة الثالثة - جهلاً وغروراً - ببهتان عظيم، فمن موقفهم : ولو لا حملة نابليون على مصر لكان كيان الأدب العربي منهدماً !! . وبسبب نزعتهم القوية إلى التجديد اتخذوا الموروث من الأدب والنقد

1. نفس المرجع.

2. أستاذ أحمد إبراهيم، تأريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 18

3. النقد الأدبي - للصف الثالث الثانوي ، دولة الإمارات العربية المتحدة³

مهجوراً، وادعوا الفنُّ للفن ، و أن الأدب غاية وهدف بذاته، وليس وسيلة للتعبير عن ذات الأديب، بوصفه إنساناً، وحساساً ومنفعلاً، ولا عن إنسانية الإنسان ومشاعره. ونقول في ضوء مسيرة الحركة النقدية الغربية: إن كل نظرية نقدية، كانت تمهّد لأختها، دون أن تلغيها؛ وإن اتجهت اتجاهاً مغايراً لها في أحيان كثيرة، بل إن كثيراً من النظريات، ولدت في أحضان نظرية سابقة، فكانت أشبه بالبنات لها، كالتفكيكية والتركيبية اللتين ولدتا في قلب البنيوية، وهما آخر ما انتهت إليه الحداثة في مرحلة ما بعد البنيوية. أما نظرية التناسل – وهي نظرية من نظريات ما بعد الحداثة – فإنها ولدت في أحضان السيمولوجية (السيمائية) والبنيوية ابتداء بالشكلانية وانتهاء بالتفكيكية. وكان أدونيس، ويوسف الخال، من أشهر أعلام الذين دعوا صراحة إلى تبني المقاييس الغربية بأسرها في دراسة الأدب العربي قديمه وحديثه.

والطبقة الثالثة المذكورة يُمثّلها ما كتب طه حسين (في الأدب الجاهلي) متأثراً بفلسفة ديكارت، وما كتب العقاد في كتابه (ابن الرومي، حياته وشعره) وكتاب آخر عن أبي نواس، متأثراً بالمباحث التاريخية والبيولوجية والسيكولوجية. وشكّل العقاد إلى جانب إبراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري مدرسة الديوان التي تأثرت بالرومانسية الغربية في النقد، ونقدوا متأثرين بمقاييس النقد الغربي المنفلوطي وحافظا وشوقي وغيرهم الذين جاهدوا للمحافظة على التراث¹.

وظهر نوع جديد من الدراسات النقدية القائمة على المقارنة بين الأدبين العربي والأوروبي، مستفيدة من تطور الأدب المقارن في أوروبا، هذا المنهج الذي ولد في فرنسا عام 1828 على يدي "أبيل فيلمان"، حيث مهّد هذا الفرع المعرفي الجديد، مثل: "تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هوغو" لروحي الخالدي، و"منهل الورد في علم الانتقاد" للناقد

¹. مجلة الدعوة السياسية الشهرية، العدد: 137.

السوري " قسطاكي الحمصي". أكيدا، كان دخول هذا النوع من الدراسات إلى النقد العربي يعني الرغبة في وضع الأدب العربي جنبا إلى جنب مع سائر آداب العالم من أجل اكتشاف الذات.

وهذه السطور التالية لنزار قباني تمثل هذه الطبقة، فنقرأ مثلا :

لقد اشتغلتُ تسعة شهور.....

عند نهديك المتغرسين!!

ولي الحقّ - ككل عمّال العالم -

أن أنال إجازتي السنوية..

كان أجري قليلا..

وحظّي قليلا...

.....

ولكنّ نهديك

- ككل أولاد العائلات الإقطاعية -

اعتبراني مملوكا لهما...¹

ومن الأسف الشديد أماننا جيل ناشئ يعلم - من المناهج الدراسية المقررة في جامعاتنا - ويقرأ نزار قباني وأمثاله، ولكن ما سمع عن عبد العليم القباني وأمثاله قط، يرسم هؤلاء الأدباء ما في الفرد من نقائص وعيوب وضعف وخسّة وهبوط؛ على أساس أنها واقع (الواقعية) وضربة لازب، لا أمل في الفكك منها، أو الارتفاع عليها!!

وإن نظرنا إلى تعريف الأدب والنقد يعين هؤلاء، لكان كلُّ جدار، خصوصا جدار دورة المياه العامة في القطار، وفي الأمكنة العامة، أجدبَ عمل فني رسما، وأخلبَ عمل أدبي تعبيراً.

¹. كل عام وأنت حبيبي، نزار قباني، ص: 107

وأما الأدباء في العصور الثلاثة: الجاهلي، والإسلامي، والعباسي، فكانوا متناقدين، وكان بينهم نقاد نبغاء، يعرض عليهم الأدباء أعمالهم الأدبية للنقد من الناحية اللغوية والفنية وبيان قيمته الموضوعية، وإيضاح تأثيره، فأدى النقد وظيفته تاما، ولعب دورا هاما في إزهار الأدب وإثماره، نتيجة لهذا وجد العالم تغيرا باهرا ملموسا في الأدب نثرا ونظما، مضمونا وشكلا، فتعددت الأبواب، وتتنوعت الفنون حسب المقتضى في كل عصر ومصر.

وتتطرق شواهد تاريخية عديدة بأن أهم عوامل النهضة في العصر الحديث، هو إحياء التراث القديم فكان رواد النهضة الأوائل، من أمثال الشيخ محمد عبده، وعلي مبارك، وأحمد زكي، ومحمود سامي البارودي، والمنفلوطي، وحافظ بك وأمثالهم من المحافظين، وكذلك أصحاب الجمعيات العلمية والأدبية، والمجامع اللغوية، والمستشرقون كلهم يجمعون أولا وقبل كل شيء كثيرا من دوائر التراث العربي، فالمقبول المحمود في الأدب والنقد بناء عمارتهما على أصل متين، هو التراث القديم، والأخذ من كل أمة ما هو مفيد جاذب، جديدا كان أو قديما، بشرط أن يكون المضمون الجيد الجديد دوما في إطار فني جميل ومؤثر.

ونرجو - اختتاماً لهذا المقال - الموقف الإيجابي والانفتاح من الأدباء والنقاد والقراء، كما نرجو انشراح الصدور للاطلاع والوقوف على ما كتبه الدكتور شوقي ضيف، حينما رجع عن بعض آرائه عن شاعر تعاطف دوماً مع الأمة الإسلامية في آلامها وآمالها، بل مثلها وعبر عنها في براعة ودقة، هو شاعر النيل حافظ بك إبراهيم " فقد كنت تجاوزت - من بعض الوجوه - الاعتدال في الحكم على حافظ بك إبراهيم مُغفلاً المقياس التاريخي النسبي لظروف عصره، وما كان يحوط أبناء جيله فيه من بلبلية سياسية، ومن غير شك سلمت لحافظ نفسه في هذه الظروف، ولم يقعد عن نصره وطنه بلسانه، بل كان في أكثر أيامه الهاتف بخواطره الوطنية ومشاعره السياسية، وخاصة في أوائل هذا القرن حين كان الاحتلال على أشده. لذلك رجعت أعدل في بعض

أحكامي على وطنيته¹. وكذلك أسقط المازني جملة ما كتبه عن شكري، والمنفلوطي، وابن الرومي، وبشار بن برد، بعد عشر سنوات، في كتابه " الشعر غايته ووسائله".

وحقا، كلُّ مؤلف حرِّيٌّ أن يغير في أحكامه، ويبدل في آرائه على ضوء ما وجد، بل واجب التغيير والتبديل فيما كُتِب على أسس رذيلة حقيرة...، فلو كان في كل دولة عشرة أدياء ونصفهم من النقاد، سالمين من مملوكية النهدين، ومعالجين القضايا الإنسانية والاجتماعية، وقائمين بمسؤوليتهم قبل المجتمع، لَمَّا وصل عالم القراء إلى هذه الحال من الخيبة الدولية...، ولَدِينَا أحلام كثيرة بعيدة المدى، نعلم أنها لا تتحقق أبدا...، رغم ذلك، نحلم، ليت المناهج الدراسية المقررة، وأوراق "العاصمة" غنية بما هو أسدج وأصفي وأهدى إلى محجة بيضاء، وبالله التوفيق.

المصادر والمراجع :

1. أحمد حسن زيات ، تاريخ الأدب العربي، دار نشر الكتب الإسلامية .
2. أستاذ أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب . دار القلم ، بيروت ، لبنان .
3. صالح آدم بيلو: من قضايا الأدب الإسلامي، دار المنار للنشر، السعودية، جده .
4. د. عباس توفيق ، مجلة الدعوة السياسية الشهرية، العدد: 137 ، جمادى الأولى 1425 هـ ، مركز الدراسات الإسلامية برمنجهام ، بريطانيا .
5. د. عبد الباسط بدر : مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ، دار المنار للنشر ، السعودية ، جده .
6. عبد الرحمن رأفت الباشا، نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد : د/ دار الأدب الإسلامي قبرص .
7. د. عدنان علي رضا ، الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته دار النحوي للنشر والتوزيع – رياض المملكة العربية السعودية 1407 هـ (1987م).
8. محمد الرابع الحسني الندوي : الأدب الإسلامي وصلته بالحياة ، دار الصحوه ، القاهرة .
9. محمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية الميسرة – دار إحياء التراث العربي .
10. د. نجيب الكيلاني : آفاق الأدب الإسلامي ، مؤسسة الرسالة:
11. النقد الأدبي – للصف الثالث الثانوي ، دولة الإمارات العربية المتحدة.
12. www.adabislami.org

¹ . مقدمة دراسات في الشعر العربي المعاصر، شوقي ضيف، ص: 5